

عن مفهوم الهشاشة في أعمال بيكاسو النحتية الورقية

نور عسليية



دفعني بحثي في الماجستير حول النحت بالورق في الفترة المعاصرة للتساؤل عن بعض المفاهيم التي لطالما كانت ملائمة للنحت و التي انقلبت بشكل جذري مع بداية القرن العشرين، خصوصاً مفهومي الديمومة و الصلابة. تتركز أبحاثي في الدكتوراة حول الهشاشة من منظور فلسفي جمالي بقصد تحليل وتفسير أثرها على الفعل الإبداعي. أسعى لدراسة هذا المفهوم من خلال تجربتين فنييتين بشكل أساسي: الأولى هي الاستخدامات غير المسبوقة للورق من قبل بيكاسو ، مفترضة أن الهشاشة لديه هي هشاشة مادية، والثانية هي الأعمال الهشة لمارسيل دوشامب خصوصاً التي تحتوي على الزجاج ، حيث تتبدى الهشاشة لديه من خلال المادة و المفهوم معاً. أستعرض أيضاً بعض المواد الهشة الأخرى التي كانت محط اهتمام الفنانين في تلك الفترة مثل الغبار في *élvage de poussière* لمان راي ، خيوط العنكبوت في العمل التركيبي sixteen miles of string لمارسيل دوشامب ، والمواد الزائلة مثل عجينة الصابون و تذكرة المواصلات في التجربة الفريدة sculpture involontaire لدالي وبراساي.

لابد في البداية قبل التطرق لاستخدامات بيكاسو النحتية للورق من تقديم تعريف مختصر للهشاشة . في مقال خصّصه الفيلسوف أوسكار بيكر حول جمالية الهشاشة ، مقارنة نادرة في زمنها، يطرح بيكر هذا التعريف : « الهش هو القابل للكسر. كل ما هو دقيق ورفيع و قابل للكسر ، خصوصاً عندما يكون خاضع لشدة توتر داخلية » تعبّر الهشاشة إذاً بالدرجة الأولى عن «نقص في المقاومة» وهو أحد التعاريف اللغوية . ويبدو من الضروري التمييز هنا بين الصلابة والمقاومة ، لأن مفهوم الهشاشة في النحت أكثر تعقيداً بحكم ارتباطه بفهوم الزمن. فالهش يعبر عن المتهاك و الزائل في نفس الوقت . إن الطبيعة المادية لجسم ما لا تخضع للهشاشة إلا بمرور الزمن، هذا يعني أن الجسم يصبح هشاً أكثر فأكثر مع تأثيرات الزمن عليه و في كل الأحوال إن أي مادة بذاتها وبشكل مجرد لا تمتلك صفة التدمير الذاتي. كان جيل دلوز قد تطرق مراراً لمفهوم المقاومة ، فهو يؤكد علاقة جوهرية بين الفن و فعل المقاومة. في محاضراته الشهيرة : «ماهو الفعل الإبداعي ؟ » ، يذكرنا بداية بوجهة نظر أندريه مالرو ، الذي يقول بأن الفن : « هو الشيء الوحيد الذي يقاوم الموت» ثم يعلق دلوز على هذه العبارة بقوله : « في الحقيقة هناك رابط حتمي بين العمل الفني و فعل المقاومة » و هكذا فإن الفن بذاته يواجه هشاشة الإنسان الذي ينزع لتخليد ذاته من خلال الفعل

الفني منذ الفنون القديمة. بالرغم من ذلك يمكن للهشاشة أن تتجلى في النحت المعاصر من خلال مواد الإنشاء فقط ، و أعمال بيكاسو الورقية هي من أبرز الأمثلة.

لقد عرف الورق استخدامات عديدة في الفن : حامل في الرسم ، مادة إنشاء في الكولاج وبناء في النحت ولقد اختبر بيكاسو كل هذه الطرق بالإضافة إلى استخدامه للورق كقالب للصب مثل عمل « empreinte de papier froissé » .

تصف المؤرخة أن بالداساري في كتابها : «Picasso , papiers journeaux» كيف أن الفنان قد شهد في طفولته شغف والده ، دون خوسيه مدرّس الرسم في مدرسة الفنون في مالقا ، بالأوريغامي (فن طي الورق) . مع هذا الأثر في ذاكرته ، و بعد مراسلات مع جورج براك دارت حول استخدام الورق ، قام بيكاسو بإنشاء أول منحوتات ورقية له في خريف عام ١٩١٢ و المتمثلة بمجموعة الغيتارات . إن هذه الإنشاءات مشتقة من التكعيبية و قد أدت لولادة الكولاج. قدم بيكاسو هذه الغيتارات بصيغتين :الأولى كمنحوتات مستقلة ، والثانية كجزء من أعمال تركيبية في رسمه في بولفار راسباي . بالنسبة لجورج براك لم تكن حياة عمله sculpture de coin المصنوع من الورق حياةً طويلة ، حتى أن اكتشافه جاء متأخراً في عام ١٩٨٢ عندما وجدت له صورة في أرشيف الفنان هنري لوران ، مأخوذة من قبل داعم الفن الشهير كانويلير . أما بيكاسو فلقد احتفظ جيداً بإنشاءاته النحتية الورقية . لكن بالنسبة لمؤرخ الفن ويليم رويان كما بالنسبة لفيرنر شيبس في كتابه «Picasso sculpteur» ، فإن هذه الإنشاءات ما هي إلا ماكينات للنسخ المعدنية اللاحقة التي بدأ بيكاسو بإنشائها حوالي عام ١٩١٤ . من وجهة نظرها ، المؤرخة كريستين بوجي تعتبر أن هذا التحليل يحدّد اهتمام الفنان بالورق فهي ترى أن خيار المادة له دور مؤثر بشدة على الإنشاء ككل ، هذا التفكير العمق الذي تطرحه بوجي في مقالها المطول «Picasso's First Constructed Sculpture» يدعونا لإعادة النظر بهذه الأعمال آخذين بعين الاعتبار الدور الإبداعي الكبير للورق . بالإضافة إلى إن خاصية الورق الذي يحتفظ بتأثيرات الزمن تجعل من مرور الوقت عاملاً يغذي جمالية العمل .

في مجموعة أخرى : « Papiers déchirés » (الورق الممزق) شهدت الورقيات عمليات توثيق مختلفة . فلقد وثقها المصور براساي بشكل دقيق بتصويرها ، و أيضا بما كتبه عنها في حوارها مع بيكاسو «Conversation avec Picasso» . وهي تمثيلات متعددة : رأس كلب ، سمكة ، رأس امرأة ، جمجمة .. يتحدث براساي في كتابه عن خصوصية مجموعة الورقيات التي تمثل رأس الكلب وكيف بدأ بيكاسو بعملها موسياً دوراً ماراً ، شريكته في تلك الفترة ، بعد أن فقدت كلبها ، ويشرح تفاصيل هذه الإجراءات ففي كل مرة كان يمزق أي ورق في متناول يده ، يقص أو يرسم ، أو يثقب العيون أو يحرقها بعود ثقاب أو بالسجائر . هذه الطريقة بإعادة الفريدة لإحياء الكائن بلامحه و بعض تصرفاته تواجه هشاشة الكائن وطبيعته الفانية ، تقاوم الموت و الاختفاء الأبدي . لكن الأهم في هذه المجموعة أن الورق ، هذه المادة المفرطة الهشاشة ذاتها هي « مادة الذاكرة » حسب تعبير المؤرخ بيير مارك دو بيازي. من الملفت أنه في هذه الورقيات الممزقة إذا كان خيار الفنان من مناديل أو علب سجائر أو أوراق مرسوم عليها. في المقال المتخصص عن بيكاسو «Picasso dans son élément» المنشور في مجلة Minotaure يقول أندريه بريتون أنه على عكس ما هو متعارف عليه فإن بيكاسو اختار أن يبحث عن الاندثار والزوال هي ذاتها التي تشكل حساسية و ضعف في العملية الفنية من وجهة النظر التقليدية . وهكذا فإن هشاشة المادة قد فرضت عمليات محددة في النحت مثل القص ، الطي ، الحرق ، الثقب ، والرسم على سطح المنحوتة . في النهاية تبنت سطوة هذا المنهج في أعمال لاحقة لبيكاسو منفذة بمادة الإسمنت مثل Déjeuner sur l'herbe و Femme aux bras écartés حيث تهيمن خواص الورق على هذين العملين المسبوقين بماكينات ورقية أو كرتونية . لقد أخذت هذه المادة الحساسة بطبيعتها ، النبيلة بعمقها التاريخي و دورها في حفظ الذاكرة معنى فريد وغير اعتيادي لدى بيكاسو ، فتجلت خلال هذه الاستخدامات فكرة جيل دولوز حول دور الفن في الحفظ ، فهو برأيه الشيء الوحيد الذي بذاته يحتفظ و يُحفظ .

-
- [1] Oskar Becker, la fragilité du beau et la nature aventurière de l'artiste, traduction par Jacques Colette, Philosophie n° 9, Les Éditions de minuit, Paris, 1986. p. 43.
- [2] Centre National de Ressources Textuelles et Lexicales. <http://www.cnrtl.fr/>
- [3] Gilles Deleuze, Qu'est ce que l'acte de création, Conférence donnée dans le cadre des mardis de la fondation Femis, Paris, 17/05/1987. <https://www.youtube.com/watch?v=2OyuMjMrCRw>
- [5] Anne Baldassari, Picasso papier journaux, Paris, Tallandier, 2003, p 90.
- [7] William Rubin, Judith Cousins, traduire par Jeanne Bouniort, Braque et Picasso l'invention du Cubisme, Paris, Flammarion, 1990, p.26.
- [8] Christine Poggi, Picasso First Constructed Sculpture: A Tale of Two Guitars. The Art Bulletin 94, no. 2, 2012, p.274-98. « what counts is the syntactic value of the elements within the overall system, not their specific qualities or the labor used to produce the system itself. »
- [9] Brassai, Conversation avec Picasso, Gallimard, Paris, 1997
- [10] Pierre Marc De Biasi, Le papier, fragile support de l'essentiel, Cahiers de médiologie n°4 : Pouvoirs du papier, Paris, Gallimard, 1997. p.10.
- [11] André Breton, Picasso dans son élément, Le Minotaure n°1, Paris, Skira, 1933. p.14.
- [13] Gilles Deleuze et Felix Guattari, Qu'est-ce que la philosophie ?, Paris, Minuit, 1991, p. 154.